الحكومة النبوية
(٢)

أ. عبد المتعال سالم عاشور(*)

انتهى بنا الحديث فى العدد السابق عند الحافظ أبى الإسعاد عبد الحى الكتانى والملابسات التى أحاطت بتأليف كتابه «التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» .

واليوم نستكمل الحديث عن الكتاب ، ونحاول أن نتلمس أوجه الشبه والخلاف بينه وبين كتاب الخزاعى «تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية» ، وأن نعرض للمعالم الأساسية للدولة النبوية عند الشيخين .

أثار فى الشيخ الكتانى شجونه وأساه وحرك مواجعه ما رآه عند بعض الباحثين من إهمال لعصر النبوة ، ممن يخطفون الخطفة من العلم نتفا ومن وصفهم الخزاعى بقوله : «رأيت كثيرا ممن لم ترسخ فى المعارف قدمه وليس له من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه»[1] . ومنذ السطور الأولى فى سفر «التراتيب» يسجل الشيخ هذا الإهمال وسببه : «فإن الذين اعتنوا بتدوين المدنية العربية لخلفاء المملكة الإسلامية ، أهملوا ما كان من ذلك على عهد رسول الله ﷺ» . وما ذاك إلا لأن الذين يتعاطون السير شاب تناولهم قصور مخل وقراءات قاصرة وأهواء مضلة فلم يحيطوا علما بما كتبوا وغاب عنهم ما بلغته المدنية النبوية ، وندّت عن أبصارهم هذه الوظائف والإدارات والعمالات .

لقد سن ﷺ من القوانين والنظم ما يأمن معه كل ذى حق على حقه ويدفع التعدى من الأشرار وذوى الأطماع على أحد من الأمة أو أهل الذمة ، ومن أحكام الزوجية ، ومن أحكام المعاملات ، وسن العقوبات ، واهتم بالتعليم ، واستصلاح الأراضى ، وبناء المساجد ، ونظم الجيوش ، وقرر أصول الحقوق الدولية والمعاهدات والجوار وشئون القضاء ،

(*) من رجال التعليم .

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٤٢ نقلا عن الخزاعى .

ثم أسند هذه العمالات والوظائف إلى الأكفاء من الصحابة حتى قال البعض : «لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه فى إثبات نبوته»[١] .

شىء آخر أثقل صدره بالهموم ، وهو هذا النكران والجحود الذى تعرّض له شيخه الخزاعى ، وخلو أكثر الدواوين من التعريف به ، وجهل جملة أهل العصر به ، فيقول : «ولولا تفكرى فى أمر أبى الحسن الخزاعى وأن ما أحياه من مآثر السلف وإن قضى عليه الزمن الأخير بالنكران لكنت قد أضربت عن هذا العمل ونبذته . ولكن «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين»[٢] .

لكن عزيمة الشيخ وإخلاصه ، وإحاطته بعظمة الحضارة فى عصر النبوة ، ثم حاجة هذه الحضارة إلى من يجلو عظمتها اقتناء للأجر الجميل واجتناء للشكر الجزيل جعله يتصدى لهذه المهمة .

وهو فى تأسيه بالشيخ الخزاعى ونسجه على منواله يبادر بالقول : «ولم أقلد أبا الحسن فى عزوه» .

وتدعيمًا لابتكاراته وإضافاته واستدراكاته ، وحفظا لجهده واجَه قولاً رائجا فى علاقة اللاحق بالسابق فى مسيرة العلوم والفنون والآداب : «ما ترك الأول للآخر شيئًا» أو ما قاله الشاعر الجاهلى :

ما أرانا نقول إلا مُعادًا ... أو مُعارًا من قولنا مكرورًا

قاعدة ظالمة تصادر وتثبط العزائم ، وتدعو إلى الجمود والتوقف . ولذلك فقد وقف عندها الشيخ الكتانى طويلاً مناقشًا ، ومستأنسًا بقول الجاحظ : «ما على الناس شىء أضر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئا» . والأوقع من هذه الكلمة قول الإمام على كرم الله وجهه : «قيمة كل امرئ ما يحسن» وما قاله أبو الحسن المسعودى[٣] : «قد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر ، وربما كان الأخير أحسن تأليفا وأمتن تصنيفا» .

ومن هنا كانت العلوم نامية غير متناهية ، لكن الناس درجت على إطراء المتقدمين ، ومدح الماضين ، وتعظيم السالفين ، حتى ولو كان فى كتب المحْدَثين ما هو أعظم فائدة .

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ١٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ .
(٣) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين البغدادى . المؤرخ (ـ ٣٤٥هـ) صاحب «مروج الذهب» . كان معتزليا .

وهذا الجاحظ على جلالة قدره يحكى عن نفسه فيقول : «كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى إليه ولا الإرادات تبتسم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله ابن المقفع[١] أو سهل بن هارون[٢] أو غيرهما من المتقدمين فيقبلون على كتبهم ويسارعون إلى نسخها[٣]» .

وكأن الشيخ يتنبأ بالتجاهل والإغضاء الذى أصابه فيشترك مع ابن حزم[٤] فى أساه وهو يردد : «أزهد الناس فى العالِم أهله فلا كرامة لنبى فى وطنه وكيف لقى رسول الله ﷺ ما لقى من قومه وعشيرته .

وإذا كان هذا فى زمن رواج العلوم ورقيها ورجحان أهلها «فكيف بزماننا هذا زمن التأخر والانحطاط وغلبة الأغراض السافلة والتشبث بأذيال الناقصين والتقليد الأعمى لكل مستهجن؟»[٥] .

أراد الشيخ الكتانى أن يستدرك التقصير المشمول بفقر المصادر وفطير القراءات والغفلة عما ازدان به عصر النبوة تألقا وأريجا مع ما يحيط بدولته من شمال وشرق حيث دولة الروم ودولة الفرس وما بينهما من حروب ومؤامرات ودسائس وفتن وإغراق فى الملذات والترف . دع عنك العرب وما كانوا عليه من هوان .

وسط هذا الظلام الدامس أضاءت شمس النبوة المحمدية وما هى إلا مدة يسيرة حتى عمت أرجاء الأرض .

ثم إحساس الشيخ بمسئوليته أمام الآتين بعد فهو يقول لهم :

«إليكم معشر الآتين أسوق هذه المجموعة النفيسة التى هى كمرآة مكبرة تتجلى لكم منها الحالة الاجتماعية والسياسية والحربية والعلمية الأخلاقية والعائلية التي كان فى عصر النبوة[٦]» .

---

(١) عبدالله بن المقفع (-١٤٣هـ) إمام طبقة الكتاب فى العصر العباسى كان مجوسيا ثم أسلم . اختص بالمنصور أبى جعفر فكتب له حتى قتل وهو في مقتبل العمر ، من أشهر أعماله : الأدب الصغير ، كليلة ودمنة .

(٢) سهل بن هارون (-٢١٥هـ) كاتب بليغ من واضعى الفصص ، اتصل بخدمة هارون الرشيد وولده المأمون وكان شعوبيا متعصبا للعجم ، له كتاب على نسق كليلة ودمنة . الأعلام ٣/٢١٠ .

(٣) مقدمة التراتيب .

(٤) ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد (-٤٥٦هـ) عالم الأندلس فى عصره وأحد الأئمة الكبار ، كان من صدور الباحثين ، وكان شديد النقد للفقهاء والعلماء مما كان سببا فى إجماعهم على بغضه فطاردوه وحذروا منه ، وهو إمام المذهب الظاهرى ومن كتبه المحلى ، الفصل ، الإحكام . الأعلام ٥/٥٩ .

(٥) مقدمة التراتيب ٧٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

وقد تجرد الشيخ لهذه المهمة وفاءً لحق هذا العصر . وعُنى بتراجم الوظائف والدواوين والنظم وعدّ هذا الهدف من الواجبات حتى تكون هذه الفترة النبوية منوالاً تنسج عليه الأمة ، وحافزًا يبعث فيها أسباب النهوض لاسترجاع ما فات ، وصونًا لاستقلالها ، وليعلموا شرف الرسالة المحمدية .

هذا عن بواعث التأليف فماذا عن المصادر؟

يعجب المرء لهذا الفيض الموسوعى للمصادر والمراجع التى استقى الشيخ منها مادة كتابه والتى تغطى جميع فروع المعرفة : لغوية وأدبية ، وفقهية ، وتاريخية ، وعلم الحديث . وطبقات الرجال والأنساب وأخبار الدول . وكتب التفسير ، والأصول ، والتصوف ، وكتب السياسة والرحلات وأسامى الفنون ، والمعاجم والمسانيد وتاريخ المدن وكتب الأحكام ، والشروح والذيول والاستدراكات . قراءة واعية ناقدة ينسب كل قول لقائله وكل شاهد لمصدره بين التقريظ والتفنيد . يبدأ حديثه عن المصادر فيقول : «ولما كان لكل شىء مادة . فمادة كتابنا هذا من الوجهة الحديثية : الكتب الستة التى هى معصم الإسلام وساعده . وشروحها . . . »إلخ[1] . حيث تتجاوز الكتب فى هذا الفن فقط ثمانين مؤلفًا وعلى هذا النسق أخذ فى سرد بقية العلوم : سيرة وتراجم وأنسابا . . . إلخ . ولقد احتلت أسماء الكتب من المقدمة اثنتى عشرة صفحة بالبنط الصغير ، غير ما جاء فى ثنايا الكتاب بعد ذلك .

قصة كتاب الخزاعى معه . وكيف ترسم خطاه؟ وأين عثر عليه؟

يقول الشيخ عبد الحى الكتانى :

«ومن أعظم ما اعتمدته وسايرته كتاب التخريج وإن كنت لم أقف عليه كاملاً . فإنى على ترتيب ما وقفت عليه منه اعتمدت ، وعليه أضعاف فصوله وأصوله ونقوله زدت واستدركت ، كما فعل ابن حجر[2] فى «الإصابة» فيما زاده على الذين دونوا قبله . . أو كما وقع لابن الطلاع الأندلسى[3] مع ابن أبى شيبة[4] . وقد كنتُ شديد التطلب لهذا

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٢١ .

(٢) ابن حجر . الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى (ـ ٨٥٢هـ) نشأ يتيم الأبوين . حاز من العلوم واجتمع له من شيوخ العصر ما لم يجتمع لغيره . وتفرد فى علم الحديث وقصر نفسه عليه وزادت تصانيفه فيه على مائة وخمسين مصنفًا . من أهم مؤلفاته : فتح البارى ، الإصابة . لسان الميزان .

(٣) ابن الطلاع : محمد بن الفرج القرطبى المالكى ، أبو عبد الله بن الطلاع : مفتى الأندلس ومحدثها فى عصره (-٤٩٧هـ) . له مصنف بعنوان ، أقضية رسول الله ﷺ ، وسبب تأليفه ، هو أنه عثر على كتاب صغير لابن أبى شيبة بهذا العنوان فرأى أن ينسج على منواله تبركا ومحبة ، ولذلك يشير الكتانى إلى أن صنيعه مع الخزاعى كصنيع ابن الطلاع مع ابن أبى شيبة .

(٤) ابن أبى شيبة : عبد الله بن محمد (-٢٣٥هـ) صاحب المسند والمصنف . راجع الأعلام ٤١٩/٧ ، ٢٦٠/٤ .

الكتاب والبحث عنه من أقصى وادى نون إلى بلاد العريش حتى ظفرت به فى مكتبة تونس الزاهرة فى رحلتى إليها سنة ١٣٣٩هـ فأخرجته بقصد الاستنساخ ولكن لم أجد اسم المؤلف على ظهر هذه النسخة»[١] . وهى النسخة التى ظفر بها بمكتبة جامع الزيتونة ومنها استخرج النسخة التى بين يديه . وهى ناقصة القسم العاشر . على أنه أشار إلى نسخ أخرى سمع بها ولم يرها : واحدة بمكناسة وأخرى بفاس وثالثة بباريس . كما أشار إلى تلخيص الشيخ رفاعة الطهطاوى لكتاب التخريجات ، وذلك فى مؤلفه المسمى : «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز»[٢] .

ولما ظفر بمنيته بالعثور على هذا الكتاب الفريد فى بابه صحبه ليالى وأيامًا «يميز أبوابه ويشير على رءوس الكلام وأصوله ، ويصحح أخطاء ناسخه الذى وجده لم يعتبره ولا عرف له قيمة ، ولا فهم أنه عند عشاق الآثار الإسلامية من أكبر الكتب»[٣] .

ثم بدا له أن ينسج على منواله فأنشأ سفره ذاك المسمى بالتراتيب الإدارية ، وانقطع له أربعة أشهر أو تزيد ، وأضاف إليه الممتع والنافع بعد أن قرأ العديد من المراجع والمصادر مما أشرنا إليه ، ثم صاغ ذلك كما يقول : «على أنى قد عملت على الكتابة فى هذا الموضوع بلسان يناسب العصر ، وقلم يرمى إلى إيثار الاختصار الواضح ، والاقتصار على الأفيد والأرجح من غير إخلال أو خروج على الموضوع»[٤] .

والنسخة التى بين يدىّ من كتاب «التراتيب الإدارية» هى من نشر دار الكتاب العربى ببيروت بدون تاريخ . وتتكون من مجلدين :

المجلد الأول يحتوى على :

١ - مقدمة شارحة مستفيضة ذكر خلالها البواعث والأهداف والمصادر ، والتقاءه بكتاب الخزاعى والتعريف به ، وعرض لبرنامج الكتابين : كتاب الخزاعى وكتابه . وتحتل هذه المقدمة ثمانين صفحة .

٢ - الجزء الأول من الكتاب ويضم ، الأقسام الثمانية الأولى ، وينتهى بهذا التنويه : «تم الجزء الأول من كتاب التراتيب الإدارية» .

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٣٣ .
(٢) السابق ، ص ٤٢ .
(٣) السابق ، ص ٣٣ .
(٤) السابق .

ويستغرق هذا الجزء٤٨٠ صفحة .

المجلد الثانى :

١ - بدأه باستدراكات ومقدمات لم يعرض لها الخزاعى استغرقت أربعا وعشرين صفحة .

٢ - القسم التاسع عند الخزاعى مع الاستدراكات والإضافات ويشغل ١٤٤ صفحة .

٣ - القسم العاشر وبه موضوعات جديدة لا علاقة لها بالقسم العاشر عند الخزاعى ، ويبلغ حوالى ثلاثمائة صفحة .

٤ - تقريظ وتنويه نشرته إحدى الجرائد .

٥ - فهرسة الكتاب .

وعدد صفحات هذا المجلد ٥٠٠ صفحة . وإذن فصفحات الكتاب تجاوزت الألف بستين صفحة ، وبلغت أبوابه ستة وأربعين وأربعمائة .

وتتمثل المعالم البارزة فى بناء الحكومة النبوية عند الشيخين فى الآتى :

أولا : وحدة الأمة وتماسكها ووضع النظم والقوانين اللازمة لذلك ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن البيعة والمعاهدة .

ثانيا : الوظائف والعمالات والدواوين اللازمة لهذا البناء المعمارى :

١ - ما يلزم صاحب السلطة من الحجابة والحراسة والحاشية والوزارة ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الكتانى فى مقدمة كتابه حيث قال :

«بحيث يجد المتتبع أن وظائف حاشية الملك الخاصة بشخصه - أى شخص رسول الله ﷺ - من صاحب الوضوء والفراش والحارس والحاجب كانت موجودة عند النبى ﷺ . ولعلّ عن ذلك العهد أخذها ملوك الإسلام»[1] .

٢ - الجهاز المالى وما يستتبعه من نشاط اقتصادى من زراعة وتجارة وصناعة وبقية الحرف . وموارد الدولة من زكاة وخراج وغنائم وجزية ، ثم النفقات وتعيين المصدقين أو العاملين على جمع الزكاة ، مع ملاحظة أن الزكاة تغطى كل صنوف الأموال من زراعة وتجارة ونقد وماشية وركاز ، وأن تنظيم الأسواق وتطهيرها من الغش والغبن والتطفيف والربا

---

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٩ .

جزء من عمل المحتسب ، وأن ما يرد من أموال ينفق على أهل القرية أو القبيلة نفسها من الفقراء .

٣ - الجهاز القضائى : وما يستتبعه من ديوان المظالم ، وتعيين الشهود ، وشروط القاضى ، وأدب القضاء وإصدار الأحكام ونفقات القضاء .

٤ - الجهاز الأمنى : اتخاذ الحرس ، ومراقبة الأسواق ، ومنع المحرمات ، وتنفيذ الأحكام من عقوبات وحدود وقصاص وسجن .

٥ - ديوان الرسائل والمعاهدات والترجمة وعقود الصلح .

٦ - تعيين الولاة على الإمارات والنواحى .

٧ - التعليم .

٨ - الأوقاف فى شئون المساجد والمواريث وأمراء الحج .

٩ - الدفاع أو الجهاد وتعيين القادة (أمراء الجيش) ومن يستخلف رئيس الدولة ، وتقسيم الجيش إلى أخماس ، والأسلحة ، وتدريب الجنود على الفروسية والرمى وصناعة الأسلحة وحفر الخنادق ، ورعاية أسر الجنود .

١٠ ـ الطب وأنواع الأدوية والحَجْر ، ومسئولية الطبيب الجنائية إذا أخطأ ، وتعيين الممرضات . وهناك إلى جانب ذلك الرعاية الاجتماعية واستقبال الوفود والاهتمام بالتدريبات الرياضية كالسباق والسباحة والمبارزة والرمى .

وكل ما سبق كان موجوداً فى العهد النبوى وإن اختلفت الأسماء أو جاء بصورة مبسطة . فإذا قلنا مثلا : القضاء ، فليس معنى ذلك أن هناك درجات للتقاضى من ابتداء إلى استئناف إلى نقض . . . إلخ . . أو أن هناك أنواعًا للمحاكم من مدنية إلى تجارية إلى عسكرية ، لكن أصول التقاضى فى إقامة الدعوى متحققة عدالة وشهودا وبيِّنة . . . إلخ .

المقارنة بين الشيخين والعملين :

أولا : أبو الحسن الخزاعى وكتابه التخريجات :

١ ـ من علماء القرن الثامن .

٢ ـ فاسى الموطن تلمسانى المولد .

٣ ـ ذو ثقافة واسعة وقراءة مديدة بين الفقه والحديث والأدب واللغة . . . إلخ .

٤ ـ من أسرة علمية نابهة .

٥ ـ شغل منصب القضاء وكان من كتاب ملوك بنى مرين .

٦ - كتابه «التخريجات» : مجلد واحد تبلغ صفحاته ٨٨٠ صفحة .

وليس للخزاعى فيما نعلم غير هذا المؤلف ، وقد أهدى مؤلفه كما أشرنا من قبل إلى أحد ملوك بنى مرين . وقد عرضنا له فيما سبق .

وقد تعرض للنكران وإهمال الحديث عنه . وإن كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م) قد عرض له فى السيرة النبوية التي سماها : «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» .

أقام الخزاعى كتابه على أقسام عشرة . وقد عرضنا له بالتفصيل فى الجزء الأول من هذه الدراسة

ثانيا : الشيخ أبو الإسعاد عبد الحى الكتانى .

١ ـ من علماء القرن الرابع عشر الهجرى .

٢ ـ من حيث الثقافة : أضاف إلى القراءة الرحلات العلمية وزيارة المكتبات ومشافهة العلماء مع تفوق فى المصادر التى قرأها . وقد هيأ له التأخر الزمنى ووفرة المكتبات أن يقرأ ما لم يقرأه الخزاعى .

ومن حيث التأليف :

أ ـ الخزاعى لم نسمع أن له مؤلفاً آخر غير «التخريج» بينما ترك الكتانى مؤلفات أخرى أشرنا إليها .

ب ـ مصنف الكتانى أكبر حجماً وأغزر مادة وأكثر استقصاء . ويكفى أن نقارن بين مقدمة الخزاعى وهى لا تتجاوز ثلاث عشرة صفحة ومقدمة الكتانى وقد اقتربت من الثمانين صفحة تكفى وحدها كتابًا مستقلاً .

جـ ـ الخزاعى جعل إهداء كتابه إلى أحد ملوك بنى مرين . بينما أهدى الكتانى مؤلفه إلى (روح شيخنا الأستاذ الوالد رحمه الله تعالى) .

د ـ بنى الخزاعى كتابه على أقسام عشرة وتحتها أبواب أشرنا إلى عددها . وكذلك فعل الكتانى إلا أن الجزء العاشر عند الخزاعى لم يكن موجودًا فى النسخة التى كانت عند الكتانى فاستبدل بهذا الجزء قسمًا عاشرًا زاد به على ما عند الخزاعى . وسنشير إليه فيما بعد . ولذلك جاء برنامج الكتابين واحدًا . وبعد كل باب يقول الكتانى باعتباره مستدركًا على الخزاعى بعد أن يذكر أبواب سلفه : « فذكرت هذه الأبواب مهذبة مختصرة عزوا وسياقا ، واستدركت خلال تراجمه» . ولنختر أقل البرامج مثالاً وهو القسم الأول .

يقول الشيخ الكتانى فى طُلَعة الأقسام :

القسم الأول فى الخلافة والوزارة وما يضاف إلى ذلك من الخدمات النبوية الشخصية وهى عند الخزاعى سبعة أبواب :

١ ـ فى ذكر خليفة رسول الله .
٢ ـ باب فى الوزير
٣ ـ فى صاحب السر
٤ ـ باب فى الآذن وهو الحاجب والبواب
٥ ـ باب فى الخادم
٦ ـ باب فى صاحب الوساد
٧ ـ باب فى صاحب النعلين

ثم يقول الكتانى : ذكرت هذه الأبواب مهذبة محررة عزوا وسياقًا واختصارا ، ومما زدت عليه فى هذا القسم خلال أبوابه :

١ ـ باب فى ذكر الفرق بين الخليفة والسلطان والملك من حيث الشرع والاصطلاح .
٢ ـ باب فى ذكر حبس بعض الوافدين عن الإذن .
٣ ـ باب فى ذكر من خدم المصطفى من الأحرار .
٤ ـ باب فى ذكر من كان يخدمه عليه السلام من الموالى ذكوراً وإناثًا .
٥ ـ باب فى ذكر من كان يوقظه عليه السلام إذا نام ويستره إذا اغتسل .
٦ ـ باب فى ذكر من كان يبيت على باب رسول الله ﷺ من الرجال[1] .

ولو أننا قارنًا بين الشيخين فى أول باب وهو ذكر خليفة رسول الله ﷺ لوجدنا الشيخ أبا الحسن الخزاعى قد شُغِل بشخصية أبى بكر رضي الله عنه : اسمه ولقبه وكنيته ومبايعته مبايعة عامة وخاصة ، والحجج التى قامت عليها خلافته ، ونبذة من أخباره ومناقبه ، ثم وفاته ومدة خلافته . تتخلل الأبواب شروح وفوائد لغوية ، ثم يختم بحديثه عن معنى الخلافة وأول خليفة ومعنى أمير وأول أمير . . . إلخ .

أما أبو الإسعاد الكتانى فقد بدأ من حيث انتهى سلفه فلم يَعْرض لشىء من هذا وإنما دخل فى معنى الخلافة والإمارة بتوسع وإضفاء سياسى على المنصب مما لم ينتبه له

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٥٠ .

الشيخ الخزاعى . ثم أضاف تفصيلا ممتعا عن الفروق بين الخليفة والملك والسلطان مما لم يذكره الخزاعى ، إذن فالكتانى لم ينقل كل ما قاله الخزاعى وإنما اختار جانبًا عمَّقه ثم أضاف إليه واستدعى الكثير من الأعلام ومقالاتهم للاستشهاد ، ولم يَشْغَل نفسه بالوقوف عند اللغويات كما فعل الخزاعى .

ويمكن تطبيق ذلك على بقية الأقسام .

وهاك عرضاً لموضوعات التراتيب باعتباره الأوقع والأدلّ والأجلَى على عنوان كتابه وهو «الحكومة النبوية» :

القسم الأول : أشرنا إليه وهو يتعلق بالخلافة والوزراء .

القسم الثانى : فى العمليات الفقهية وأعمال العبادات من عمالات المسجد وإمارة الحج ومعلم القرآن والفقه ، وكذا المبعوثون إلى الآفاق والجهات لهذا الغرض ، والمعلمون من الرجال والمعلمات من النساء ، ودار القراء (المدارس) ، ومن تصدَّر للفتوى ، والإمام فى الصلاة ، والإمام فى رمضان ، وأول أمير للحج ، واتخاذ المنبر ، والمؤذنون ، وإضاءة المساجد وتنظيفها وتجميرها ومنع التشويش بها ، والحزم فى استدعاء المصلين إلى المساجد وعمارات البيت الحرام وسدانته .

القسم الثالث : العمليات الكتابية : وفيه : كُتاب الوحى ، كتاب السر ، كتاب الرسائل والإقطاع ، الكتابة للبوادى ، العهود والصلح ، كُتاب فى الأمور الخاصة برسول الله ﷺ ، أدوات الكتابة ترتيب الكتاب من افتتاحية وموضوع وخاتمة وكيفية مخاطبته ﷺ للملوك وكيف كان ﷺ يفتتح كتبه ، ونصوص محفوظة من كتبه ﷺ ، وآخر كتاب له ، ﷺ وأطول كتاب محفوظ لرسول الله ﷺ ، وهل كتب ﷺ بيده الشريفة شيئا؟ ، خاتمه الشريف ونقشه ومن أى مادة ، واستخدامه ومن كان يحمل الخاتم ، وضع التاريخ وتصحيح أن أول من أرخ رسول الله ﷺ وليس عمر . باب فى السفير (الرسول) وحسن اختياره ﷺ لسفرائه ، ووصيته لهم اتخاذ البريد وأصل الكلمة وكيف أنها اسم للمسافة بين محطتين ثم أطلقت على حامل البريد ، سفراؤه ﷺ للصلح وللدعوة إلى الإسلام وبالأمان ، وللملوك فى أمور أخرى . الرسول ﷺ يبعث سفيره بهديه . وجائزته لسفير غيره ، زيد بن ثابت المترجم لرسول الله ﷺ ، كتب اليهود ، شعراء رسول الله ﷺ واستماعه للشعر وتكرمته ﷺ لسبْى سُبى له بسبب أبيات من الشعر ، ومن كان خطيب رسول الله ﷺ ، فصل فى كتاب الجيشِ ، فى البيعة ومعناها المعاهدة والمعاقدة ، فصل فى ثبوت العطاء فى عهد رسول الله

ﷺ ، فصل فى الديوان ومعناه وأول من دون الدواوين ، وما يدل على أن التدوين وقع أيام الرسول ﷺ قبل عمر ، والسن التى يجاز عندها التسجيل فى ديوان الجيش ، وكيف رد الرسول ﷺ من لم يستأذن أبويه ، تعيين القادة ورؤساء الجيش والنقباء والمحاسب ، الوصاية .

القسم الرابع : فيما يتعلق بالعمليات الأحكامية : ومنها :

الإمارة على النواحى ، والولاة الذين ولاهم رسول الله ﷺ على البلاد ، والقضاء والحج والصدقات ووصاياه ﷺ لعماله . قضاء رسول الله ﷺ وكيف أن له حكم الباطن والظاهر وجُمع له بين الشريعة والحقيقة والأقضية التى قضى فيها ﷺ[1] ، وشروط القاضى ، ومن كان يقضى أيام رسول الله ﷺ وهل كان للقضاة والولاة رواتب ، والنظر فى المظالم من أيام النبوة[2] ، وأين كان يجلس القاضى للفصل والحكم ، ومن أول من اتخذ داراً للقضاء . باب فى الشهادة وكتابة الشروط وشهادة الصبيان (وصورة عقد من عقود ذلك العصر الطاهر)[3] ، ومن كان يكتب العقود والمعاملات ومن كان يكتب بين الناس فى قبائلهم زمن النبوة ، ومن كان فارض المواريث والوكيل فى غير الأمور المالية ، إرسال الخبير فى حرفة ما ليحكم بين المتنازعين[4] ، معرفته ﷺ بأمور الهندسة والبناء وإصلاح الطرق . باب فى المحتسب والقسام وفيمن ولاه رسول الله ﷺ أمر السوق . فصل فى إرسال رسول الله ﷺ من ينادى فى الناس : من ضيَّق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له . فصل فى صاحب العسس ومن ولى ذلك أيام الرسول ﷺ . السجن أيام الرسول ﷺ للرجال والنساء . إطعام المساكين وكسوتهم[5] ، وسائل التأديب بالضرب أو بالنفى أو بالهجران أو بالتعبيس منه ﷺ لأصحابه ، هل قتل ﷺ أحدًا بيده متى أمر بالتحريق للبناء وهدمه ، تنفيذ حد الحرابة ومن كان يقيم الحدود ومن كان يُجعل على الأسرى .

القسم الخامس : العمليات الحربية وما يتصل بها :

الإمارة على الجهاد وكم غزوة غزاها ﷺ . وما هى أشرف الغزوات عند الله وعند رسوله ﷺ؟ . عدد بعوثه وسراياه ومن عينهم من أمراء الجند ومن كان يستخلف ، وصاحب

---

(١) التراتيب : ١/٢٥٠ .
(٢) السابق : ١/٢٦٦ .
(٣) السابق : ١/٢٧٤ .
(٤) السابق : ١/٢٨٠ .
(٥) السابق : ١/٣٠٠ .

اللواء ، وأول لواء رفع بين يديه ﷺ ، عقد الألوية لأمراء البعوث وانفراد كل قبيلة برايتها ، وأصل رسم الهلال وألوان راياته ﷺ واسم رايته ومم كانت تتخذ الرايات؟ وتقسيم الجيش إلى خمسة ، ومن أمير الرماة ، واتخاذ الشعار فى الحرب ، وتنظيمه ﷺ للجيش واتخاذ الخيل والمسابقة عليها . فصل فى خيله وإبله وبغلته ، ومن كان حرسه بالمدينة وحراس عسكره والمتجسس ، واتخاذ العين للتعرف لا للتجسس ، استخدام المخذل فى الحرب والنمام ، استعمال السفن الحربية وصانع المنجنيق والدبابات والخندق ، والمغانم ، والتهنئة بالنصر ، وماذا يقول ﷺ إذا رجع من سفره؟ .

كيف كان حال كفار جزيرة العرب معه ﷺ[1] ومعاملته معهم .

القسم السادس : العمليات الجبائية :

فُتح على رسول الله ﷺ فى حياته بلادُ الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق . وجُبى إليه من أخماسها وجزيتها ما لا يُجبى للملوك إلا بعضُه . وهادنه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشىء منه ولامسك منه درهمًا ، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين[2] . ومن أبواب هذا القسم : الجزية ـ الأعشار ـ الخراج ـ الزكاة ـ من يكتب الصدقات . الخارص ـ الوقف المستوفِى ـ زكاة رمضان .

القسم السابع : فى العمليات الاختزانية :

خازن الطعام . الكيال . الدرهم واستعماله ، وهل كان موجوداً أيام النبوة؟ أسماء الأكيال التى كانت مستعمله فى عهده ﷺ . باب فى اتخاذ الإبل والغنم ووسم الحيوان والحمى بحميه الإمام .

القسم الثامن : فى سائر العمالات ومنها :

المشرف على نفقات رسول الله ﷺ ، الوكيل فى الأمور المالية ، إنزال الوفد فى دار الضيفان ، نزول وفد ثقيف فى قبة ضربت لهم بالمسجد ، ومن كان يلى أمر الوفود فى زمنه ﷺ ، جوائزه للوفود ، تجمله ﷺ للوفود ، الفنادق لنزول المسافرين ، دار المرضى وقيام الصحابيات بخدمة المرضى . الطبيب وجواز الاستعانة بأهل الذمة على خلاف فى ذلك ، والتطبيب بالكى وقطع العروق وأن من لايعرف الطب لايباح له أن يعالج الناس . باب فى

---

(١) التراتيب : ١/٣٨٤ .
(٢) السابق : ١/٣٩١ .

الحجر الصحى ، النسوة الممرضات ، الحكيم المنجم القافى ، الصُّفَّة وأنها أصل لاتخاذ الزوايا للفقراء والمنقطعين . وآخر الجزء الأول : كان النبى ﷺ يسمر مع أبى بكر فى الأمر من أمور المسلمين .

القسم التاسع فى ذكر حرف وصناعات كانت فى عهد رسول الله ﷺ وذكر من عملها من الصحابة رضوان الله عليهم زيادة على ما تقدم . وقد قدَّم لهذا القسم بمقدمات تسع ذكر فيها مشروعية التصرفات المالية والكسبية قدوةً برسول الله ﷺ ، فقد باع ﷺ واشترى ، وأجر واستأجر ، ووكل وتوكل ، وأهدى وأُهدي إليه ، ووهب واستوهب ، واستدان واستعار ، وضمن وشفع ووقف ، وحلف واستحلف ، وكفَّر يمينا وأمضى أخرى ، ومازح وورَّى ولم يقل إلا حقاً فكان ﷺ القدوة والأسوة . فالكسب والضرب فى الأرض والمشى فى الأسواق والزراعة والتجارة والاحتراف مشروع ومطلوب . وإذا كان المشرع قد ذم الزراعة فى حديث يشير إلى أن الذل فى أذناب البقر[1] فذلك إذا شَغَلتْ عن الغزو فأطمعت العدو على الهجوم ، فأما إذا جُمع إلى الزراعة الاستعداد والقوة فتلك هى السُّنَّة . وينبغى ألا تشغل الكاسب عن حق من حقوق الله ، وأن يتحرى الكاسب مواطن الحرام والشُّبهات كالربا والكهانة والسحت ومهور البغايا والرشوة والزمر والطبل فيتجنبها ، وألا تشغل عن الصلاة فى أول وقتها . وأما ما يتعلل به بعض الجهال من ترك التكسب بغلبة الحرام فليعلموا أن هذا الزمان قلَّ أن يوجد فيه الحلال صافيا ، فليكتسب السالك ما يحفظ به حياته متحريا الحلال حتى لايموت جوعا . قال بعض الظرفاء :

يقول لى الجهول بغير علم ... دع المال الحرام وكن قنوعا
فلما لم أجد مالا حلالا ... ولم آكل حراما مِتُّ جوعا

فعليه أن يراعى درجات الحرام والشبهة .

ثم استعرض الشيخ الكتانى الحرف والصناعات التى كانت موجودة فى عصر النبوة سواء أكانت صناعات حربية أو مدنية وسواء أكانت للرجال أو للنساء . وسواء أكانت مباحة أو مختلفًا عليها .

وأول حرفة تكلم عنها وعن الصحابة الذين تعاطوها : حرفة التجارة باعتبارها أكثر الحرف سيرورة ، وساق خلال حديثه الكثير من الطرف والعظات والنوادر .

---

(١) عن ابن عمر قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد . سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم . أبو داود ٣/٧١٠ كتاب البيوع .

وقد أربت أنواع الحرف والصناعات التى ذكرها على الخمسين إذا أدخلنا أنواع التجار أعداداً : العطار . البزاز . بائع الرماح . بائع الطعام ، فهؤلاء وأمثالهم مندرجون تحت «التجار» . ومن طرائفه ذكر أصل تسمية البيع والشراء : تجارة .

ومن الحرف التى ذكرها : الوزَّان ، الصرَّاف ، الحطاب . الدلاَّل (السمسار) ، الدباغ ، النساج ، النجار ، الخياط ، الصَّوَّاغ ، النقاش ، المصور ، الحدَّاد ، البَنَّاء . الصَّباغ ، العوام ، الصياد ، الجزار ، الحلاق ، السقاء ، الطباخ . . . إلخ .

ومن حرف النساء : الماشطة ، والتى تحرش بين النساء ، والتى تذهب لجس نبض الرجل هل له بزواج فلانة؟ ، والممرضات والتاجرات ، والقابلة ، والخافضة (الخاتنة) والمرضعة ، والغازلة ، والمرأة تمثل النساء فى المجلس النبوى ، والمغنى والمغنية فى المدينة فى العهد النبوى (وقد فصَّل هنا وصفاً وتنويعاً وفقهًا تفصيلا مستقصيًا) ، واتخاذ التماثيل للبنات الصغار ، ورقص الحبشة فى المسجد النبوى ، والمصارعة وحرف أخرى .

ويلاحظ أن للشيخ متابعات فقهيةً كلما اقتضى الأمر كما حدث عند ذكره الغناء والمغنين ، أو اللهو واللعب المأذون فيه ، أو جواز التعامل مع غير المسلمين عند ذكره لحرفة الصاغة . كما أنه كان يستقصى الموضوع كما فعل عند حرفة البناء فقد استطرد فى حديثه فذكر بناء المسجد النبوى والمساكن النبوية وهدم مسجد الضرار .

القسم العاشر : انفرد الشيخ الكتانى عن سلفه بهذا الباب وسبب ذلك أن النسخة التى وقعت فى يده سقط منها هذا القسم . ولكى يتساوى فى عدد الأقسام مع الشيخ الخزاعى أنشأ هذا القسم . ولذلك فهو يقول فى مقدمته : «قد عوضنا هذا القسم من كلام الخزاعى لخلوه من الفائدة بقسم آخر استدركناه عليه ، وهو من الأهمية بمكان وربما يضارع جل أجزاء المؤلف»[1] .

وموضوع هذا القسم : الحالة العلمية على عهده ﷺ . وقد أقامه على مقصدين .

المقصد الأول : تشخيص الحالة العلمية على عهده عليه السلام تعلمًا وتعليما وكتابة وأدواتها ونحو ذلك .

المقصد الثانى : تشخيص الحالة الاجتماعية من حيث ما حازه أصحاب النبى ﷺ من السبق فى أنواع النبوغ وسعة المدارك . .

---

(١) التراتيب : ٢/١٦٨ .

أبواب المقصد الأول ستة أبواب بعد المائة .

وأبواب المقصد الثانى واحد وسبعون بابًا .

وهذا القسم يصلح وحده كتابًا مستقلاً . . يأتى فى مفتتحه الحديث عن القرآنِ الكريم على أنه أوسع دائرة للمعارف تناولها البشر . ثم يردفه ببيان عن السُّنَّة المطهرة لارتباطهما معًا فيستغرق الحديث عنهما حوالى خمسين صفحة (١٦٨ ـ ٢١٧) يتجلى لنا فيها علم الشيخ وتبحره ورحلاته بين فنون الثقافة المختلفة . ومن الإجحاف تلخيص حديثه هذا ، فالهدف هو الإغراء والترغيب فى طلب هذا الكنز والانتفاع بفوائده .

ثم يوالى حديثه فى تشخيص الحالة العلمية على العهد النبوى فيتحدث عن تعليم النساء وحق الأبناء على الآباء فى التعليم . . والتدوين والترجمة . . وأول من تكلم فى التصوف والفتوى ، والسن الذى يبدأ فيه التعليم ، وعلم الأنساب ، وعلم الفرائض ، وعلم النجوم ، وعلم الحساب ، والرحلة فى طلب العلم ، وآداب طالب العلم . . . إلخ .

وفى المقصد الثانى نجد الشيخ يذكر مِن الصحابة مَنْ لحقت بهم صفات معينة كالعلم والعدل والهيبة والأمانة والسبق والحلم ، ومن كانت تستحى منهم الملائكة ، ومن كان أحفظهم ، ومن الذى انتهى إليه الجود ، ومن أفرضهم ، ومن كان يقرأ الكتب القديمة ، ومن كان يجيد لغات متعددة . . . إلخ . يقول الشيخ الكنانى : «وهذا يعرفك أن المدينة المنورة كانت فى الزمن الأول مأهولة بصنوف الأعمال واختلاف الأفكار والصفات والأشغال الحياتية التى لابد منها فى كل مصر اتخذ عاصمة لمدينة عظمى سادت على العالم فى أقرب وقت ، وما وصل إليه ذلك العصر الزاهر من الاختلاف فى الأحوال والاتفاق فى الآمال»[1] .

بعض آرائه الفقهية :

ولأن الشيخ أبا الإسعاد الكتانى مالكى المذهب شأن أبناء المغرب والأندلس ، فقد أشار إلى سبب انتشار المذهب هناك . فقد تمت البيعة للنفس الزكية (٩٢ ـ ١٤٥هـ) لما وهنت الدولة الأموية . ويقال إن السفَّاح والمنصور كانا ممن بايعاه ، فلما قامت الدولة العباسية ، وطارد العباسيون الشيعة وسُجن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) حتى مات بالسجن ، فرَّ أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى وأقام دولة الأدارسة هناك . فى

---

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٧٥ .

هذا الصراع السياسى كان الإمام مالك يرى أن الأسبقية فى البيعة إنما كانت للنفس الزكية وأن بنى العباس اغتصبوها فحفظها له إدريس هذا ، وأوصى باتباع مذهبه وقراءة «الموطأ»[١] .

وهذه بعض آرائه الفقهية :

أولاً ـ فى الطب :

(١) كان ﷺ يديم التطبب (العلاج) فى حال صحته ومرضه . أما فى حال صحته فباستعمال التدبير الحافظ لها ، من الرياضة وقلة الأكل ، وأكله الرطب بالقثاء ، وإكحال عينيه بالإثمد ، والإبراد بالصلاة فى الحر . وأما تداويه فى مرضه فكانت تقدم عليه وفود العرب وفيهم الأطباء[فيصفون له فنعالجه كما تقول السيدة عائشة] وأمر بالتداوى[٢] . «ولما مرض سعد بن أبى وقاص قال له ﷺ : ايت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب» . وكان الحارث طبيب العرب . وكان كافراً .

وهنا اختلف الفقهاء . قال ابن عبد البر «جائزٌ أن يُشَاوَر أهل الكفر فى الطب إذا كانوا من أهله» . وقال آخرون : لا يجوز التطبب بأهل الذمة . وانتصر الشيخ للرأى الأول وساق الأدلة على الاطمئنان للخبير الأمين فى الطب والأدوية والمحاسبة . يقول ابن تيمية : «إذا كان اليهودى أو النصرانى خبيراً بالطب ثقة عدلا جاز كما يجوز أن تودعه المال»[٣] .

(٢) عن النساء الممرضات والطبيبات :

ذكر من الصحابيات الرُّبيِّع بنت معوذ ورفَيدة الأسلمية وليلى الغفارية وغيرهن ، فكنَّ يخرجن فى الغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم يسقين الجرحى ويداوينهم . وبناءً على ذلك يجوز معالجة الأجنبية للرجل للضرورة ، بل ذكر أن ابن الزبير لما مرض بمكة استأجر عجوزاً لتمرضه فكانت تغمز رجله وتفلِّى رأسه»[٤] .

(٣) الحجر الصحى : ذكر فيه قول رسول الله ﷺ : «إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها وإذا سمعتم به فى أرض فلا تقدموا عليها» . وأن عمر رضي الله عنه طبق الحديث حين وقع الطاعون بالشام سنة ١٨هـ تقريبا[٥] .

---

(١) التراتيب : ١/٩ .
(٢) السابق : ١/٤٥٥ .
(٣) السابق : ١/٤٦٠ .
(٤) السابق : ١/١١٥ .
(٥) السابق : ١/٤٦٦ .

(٤) من لايعرف الطب لايحل أن يعالج الناس : وذكر فيه الحديث الشريف «من تطبب ولم يُعَلم منه الطبُّ فهو ضامن»[١] .

وبعدُ : فهذا غيض من فيض كما يقولون ، ينبيك عن هذا العصر الزاهر بنور الحضارة والذى ظلمه الجهَّال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾[٢] وما نقلته عن الشيخ قطرة من بحر ، لا تغنى عن البحر نفسه فجزاه الله خيرا .

ثانيا : فى الغناء

(١) الحديث[٣] الشريف فى الصحيحين حين دخل أبو بكر رضي الله عنه على السيدة عائشة وعندها جاريتان فى أيام منى يغنيان ويضربان الدف ، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله ﷺ رأسه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد . وفى بعض الطرق ، قال الصِّديق : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ؟

تأمل فقه العلماء وتأويلهم لحكمة الصدِّيق : رأى رضي الله عنه أن هذا الغناء من جمل المباح . لكنّ منصب النبوة وتعظيم حضرته ﷺ وشدة الاحتشام منه حمله على التنويه ، فزجر عن ذلك احتراماً لا تحريمًا . وكان فى رد رسول الله ﷺ أمران :

أ : ألا يُعتَقَدَ تحريمُ ما أبيح فى شرعه توسعة لأمته ورفقاً بها وتفسحاً فى بعض الأوقات .

ب : إظهار الشارع مكارم الأخلاق ، وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح قلوبهم ببعض المباح فيكون أنشط لهم فى العون إلى وظائف العبادة»[٤] .

(٢) ومما جاء فى الصحيح : «ونكح بعضُ الأنصار بعض أهل عائشة . فقال لها رسول الله ﷺ : أهديت عروسك؟ قالت : نعم . قال ﷺ : فأرسلت معها بغناء؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[٥] .

---

(١) التراتيب : ٤٦٦/١ .
(٢) سورة يونس : ٣٩ .
(٣) فتح البارى ، كتاب العيدين ، باب الحراب والدرق يوم العيد جـ ٢ ص ٣٦٦ ، صحيح مسلم ، كتاب العيدين ، باب الرخصة فى اللعب . . جـ ٢ ص ٦٠٧ .
(٤) التراتيب : ١٢٦/٢ .
(٥) راجع صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٩٥ كتاب النكاح .

(٣) روى النسائى عن السائب بن يزيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال : «يا عائشة تعرفين هذه ؟ قالت : لا يا نبى الله . قال : هذه قينة بنى فلان . تحبين أن تغنيك؟ فغنتها»[١] .

هذه بعض الأحاديث الشريفة من عشرات الآثار والأخبار وأسماء المصنفات التى ذكرها الشيخ فى هذا الباب . ويعجبنا هذا الملمح التربوى الذى التفت إليه . يقول الشيخ الكتانى : وفى هذا إشارة إلى أصل عظيم من أصول التمدن وهو أن تجعل الأمة الألعاب مشحونة بتربيات تمكن القلوب من حب الدين والوطن وترتوى بمكارم الأخلاق . وذلك تعليقا على رأى بعض المشايخ : «وهو أن اللهو الذى يرتكب لإظهار المسرة العيدية ينبغى ألا يكون خالياً عن نحو مصلحة شرعية حتى يخرج ذلك اللعب عن دائرة اللهو الباطل»[٢] .

ثالثا : من أحكام الحج :

هل يجوز الحج من مال الدولة (مال الله) زكاة وغيرها؟

قال مالك : بلغنى أن عمر بن الخطاب اتخذ إبلاً من مال الله يعطيها الناس يحجون عليها فإذا رجعوا ردوها إليه . قال ابن رشد : هذا من النظر الصحيح فى مال الله ، لأن أولى ما صُرف فيه مال الله ما يستعان به على أداء فرائض الله . فينبغى للأئمة أن يتأسوا به فى ذلك»[٣] .

مآخذ الشيخ الكتانى على سلفه الخزاعى وغيره :ـ

كانت موسوعة «التراتيب» مَعرِضاً فسيحاً للنقد والاعتراض على الخزاعى وغيره . وهذه لفتات منها تكشف عن وعى الإمام أبى الإسعاد وغيرته أحيانا وعتابه من لم ير رأيه :ـ

١ ـ انتقد ابن خلدون حيث يقول :

أ – « وقد وقعتْ لبعض الأعلام فلتات إن لم نقل : سقطات وهفوات ، حتى إن الولى ابن خلدون قال فى مقدمة «العبر» فى مواضع : إن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما هى أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال يتناقلونها فى صدورهم . . . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم

---

(١) طلبته عند النسائى فلم أجده وإنما الذى خرجه أحمد فى مسنده رقم ١٥٦٦٠ من مسند السائب وفيه : تحبين أن تغنيك؟ قالت : نعم . قال : فأعطاها طبقا فغنتها . فقال النبى ﷺ : قد نفخ الشيطان فى منخريها .

(٢) التراتيب : ١٢٥/٢ .

(٣) السابق : ٥٣٩/١ .

والتأليف والتدوين»[١] . فرد الشيخ الكتانى قائلا : «ولكن من واصل ليله بنهاره واطلع وطالع بالدقة وحسن الروية يجد أن المدنية وأسباب الرقى الحقيقى التى وصل إليها العصر النبوى الإسلامى فى عشر سنوات من حيث العلم والكتابة والتربية وقوة الجامعة وعظيم الاتحاد وتنشئة الناشئة ، وما قدر عليه رجال ذلك العهد وما أتوه من الأعمال وما استولوا عليه من الممالك وما بثوا من حسن الدعوة وبليغ الموعظة ،لم تبلغها أمة من الأمم ولا دولة من الدول فى مئات السنين» ثم قارن الكتانى بين الدولة الإسلامية الناشئة وبين دولتى الروم والفرس «اللتين سقطتا فى بؤر الفساد والتحلل والفتن»[٢] .

ب - وفى لفتة علمية صحح لابن خلدون ما ذكره من أن يوسف بن تاشفين (٤١٠ -٥٠٠هـ) سلطان المغرب الأقصى وصاحب الانتصارات على الفرنجة فى الأندلس أوفد على المستظهر العباسى أبى العباس أحمد بن عبد الله (٤٧٠ - ٥١٢هـ) الخليفة العباسى ، أوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربى وولده القاضى أبا بكر محمد بن عبد الله العربى (٤٦٨ - ٥٤٣هـ) فقال الشيخ الكتانى :

هذا الكلام «منقوض لأن ابن العربى ووالده ذهبا للمشرق فراراً من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد (٤٣١ - ٤٨٨هـ) بدليل أن عبد الله بقى بالمشرق متجولاً إلى أن مات هناك إجماعاً . وولده أبو بكر بقى بعده ورجع لبلده (أشبيلية) لا إلى مراكش . واعتقلتْ أحوالهما إلى أن رجع أبو بكر فتشفع فيه الحافظ أبو على الصدفى .»[٣] .

٢ - وانتقد ابنَ إياس محمد بن أحمد أبا البركات (٨٥٢ - ٩٣٠هـ) حين قال فى تاريخه : إن الخليفة المتوكل على الله (عبد العزيز بن يعقوب بن خلفاء الدولة العباسية بمصر ٨١٩ - ٩٠٣هـ) عهد للشيخ جلال الدين السيوطى (٨٤٦ - ٩١١هـ) بوظيفة لم يسُمَع بها قط ، فقد جعله على القضاة قاضيا كبيراً يولى من يشاء ويعزل من يشاء . . . إلخ .) .

فذكَّره بأن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم أشهر تلامذة أبى حنيفة ١١٣ - ١٨٢هـ) ولى القضاء لثلاثة خلفاء من بنى العباس : المهدى والهادى والرشيد ، وكان إليه تولية القضاء بالمشرق والمغرب ، وأنه أول من خوطب بقاضى القضاة . وكذلك قيل لابن أبى دُوَاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ) قاضى القضاة أيام المعتصم[٤] .

---

(١) مقدمة التراتيب ، ص ١١ .
(٢) السابق ، ص ١١ .
(٣) التراتيب : ١٣/١
(٤) السابق ٢٦٢/١ .

٣ ـ ونقده لشهاب الدين المرجانى (١٢٣٣ ـ ١٣٠٦) المؤرخ حين ذكر فى كتابه «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» أن ديوان المظالم كان يباشر المظالم فيها الخلفاء بأنفسهم إلى أيام المهتدى بالله ، وربما سلموها إلى قضاتهم . فرد عليه الشيخ قائلاً :

هذه الوظيفة كان يليها المصطفى ﷺ بنفسه لأنه كان ينتقد أحكام قضاته وعماله ويناقشهم . ولما تكلم النويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ـ ٧٣٣هـ) صاحب «نهاية الأرب» على ولاية المظالم قال : نظر رسول الله ﷺ فى المظالم فى السَّرَب الذى تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار فى شراج (جمع شَرَج بالفتح وهو مسيل الماء من الحرَّة إلى السهل) . (وقد أشار القرطبى إلى هذه القصة عند قوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] فحضره رسول الله ﷺ[2] .

٤ ـ وفى نقده للقسطلانى أحمد بن محمّد (٥٨١ ـ ٩٢٣) أثناء حديث الكتانى عن مصادره فى مقدمة «التراتيب» قال : والمواهب اللدنية للشهاب القسطلانى وهو كتاب جامع مسبوك تداولته الأيدى وخدمه الناس . ومن الغريب أننا نجد نصفه مأخوذاً من «فتح البارى» بعزو وغيره كما نبه على ذلك شارحه الزرقانى ، كما قال قبل ذلك : «إن المصنف اقتبس من الشفا (للقاضى عياض) فى غالب التقاسيم والأبواب حتى إنه اقتفى أثره فى صدر الخطبة[3] .

٥ – ومن نقده لسلفه أبى الحسن الخزاعى نكتفى أيضا بهذه النماذج :

(أ) «وقد زُيّن له رحمه الله التوسعُ فى المواد اللغوية . وتعمد كثيراً من الاستطرادات والمتشابهات ، ومهما وقع له ذكر صحابى إلا وبسط ترجمته ونسبه مقلداً صاحب «الاستيعاب» ، مستوعبًا ما عنده فى ذلك الصحابى»[4] .

(ب) ومع أن موضوع كتابه العمالات والصناعات التى وجدت فى زمانه ﷺ إلا أنه يأتى بذكر ما حدث بعده على عهد الخلفاء الراشدين . أقول : وقد أشرت إلى ذلك عند الخزاعى فيما سبق ، وقد حدث نفس الشىء مع الكتانى مع أنه نقد الخزاعى فى ذلك . ويمكن الرجوع إلى المظالم والمغنيين وغيرها عند الكتانى لنجد أنه استطرد أيضا فى هذا .

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .
(٢) التراتيب : ٢٦٦/١ ، وراجع كذلك نيل الأوطار للشوكانى ٢٧٢/٨ كتاب الأقضية والأحكام .
(٣) مقدمة التراتيب ، ص ٢٣ .
(٤) السابق ، ص ٤٥ .

(جـ) كثير من التخاريج التى ذكرها إما تستند إلى ضعيف الأخبار أو متكلف الاستنتاج ويظهر أن الشيخ الخزاعى لم يكن عظيم المزاولة للصناعة الحديثية ، فلذلك تراه يُصَدِّر الأحاديث غالباً بلفظ «روى» وقد يستعمله حتى فى أحاديث الصحيحين مع أن «روى» إنما تستعمل فى الأحاديث الضعيفة كما ذكر أئمة التخريج[١] .

(د) «لاحظت عليه أنه يعزو الحديث لمسلم وهو فى البخارى . والقاعدة عندهم أنه لايقدم أحد على البخارى»[٢] .

وعاب عليه جدًا أنه حين ذكر حديث «تهادوا تحابوا» فى المقدمة وقف بتخريجه عند محمد بن سلامة القضاعى (-٤٥٤هـ) فى كتابه «الشهاب» فقال : « وهذا عجيبٌ صدورُه من مالكى مُحَدِّث . فأما مالكى فلأن الحديث فى الموطأ لإمامه مالك بن أنس : باب ما جاء فى المهاجرة . .الخ . وأما مُحَدِّث : فلأن البخارى خرَّجه فى الأدب المفرد . وأبا يعلى والنسائى فى الكنى . وابن عبد البر فى التمهيد بإسناد حسن . . . وحديث مخرج فى كثير من السنن والمعاجم كيف يعزوه للقضاعى فى الشهاب»[٣] .

(هـ) وفى مجال المآخذ الحديثية قال الشيخ الكتانى فى ٤٢/١ :

ذكر الخزاعى حديث معاوية : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» مقتصراً عزوَه لمسلم مع أنه فى البخارى . وهذا معيب منه رحمه الله لما تقرر أن الحديث إذا كان فى البخارى لايعزى لغيره» . وهناك انتقادات أخرى فى هذا الفن نكتفى فيها بما دوَّناه .

(و) أخذ عليه أيضا أنه أهمل ترجمه «مارية» خادمة رسول الله ﷺ ، مع أن الاستيعاب ترجم لها فقال : وكانت تكنى أم الرباب . حديثها عند أهل البصرة «أنها تطأطأت للنبى ﷺ حتى صعد حائطا ليلة فرَّ من المشركين . وترجمها أيضا فى «الإصابة» . والعجب من الخزاعى كيف أهمل هذه الترجمة مع أن «الاستيعاب» كان بيده وهو معظم مادته . والكمال لله»[٤] .

---

(١) مقدمة التراتيب : ٤٥ .
(٢) السابق ٤٦ .
(٣) السابق .
(٤) التراتيب : ٣٥٠/١ .

(ز) عند حديث الشيخ الكتانى عن الزراعة والغرس قال :

«لِمَ أغفل هذه الترجمة الخزاعىٌ مع أهمية الزراعة فى نظر الإسلام وكثرة اعتناء الصحابة بها ، وفيض الآيات القرآنية حول الزرع والنبات والغرس تذكرة بنعم الله سبحانه ، وقد أكثر سبحانه فى كثير من الآيات التذكير بما أنعم به من إخراج الزرع والنبات . . . إلخ»[١] . ونكتفى أيضا بهذا القدر فى نقد الخزاعى .

لكنَّ الشيخ الكتانىَّ وهو يتحدث عن المُدّ والصاع وغيرهما من أسماء المكاييل أيام رسول الله ﷺ قال كلمة إنصاف فى حق أبى الحسن الخزاعى :

«كما أن كلمة الإنصاف أن مباحث المكاييل والأوزان والدرهم والدينار من كتاب الخزاعى هنا لم أر أوعب منها ولا أجمع فيما رأيت ممن كتب فى المسألة من أهل الشرق والغرب بحيث لو لم يشتمل كتابه إلا عليها لكان جديراً بالاعتبار»[٢] .

والآن

(١) مع العاصمة الإسلامية الأولى وهى تتكون فى شهورها الأولى .

(٢) ثم ملاحظات عابرة حول مصنف الشيخ الكتانى وبه يُختتم البحث .

أولا : وصف المدينة قبل الهجرة .

(أ) من حيث الموقع والمساحة : تشغل المدينة مساحة واسعة تمتد من جبل أحد شمالا إلى جبل عير جنوبًا ، ويبلغ طولها اثنى عشر ميلا فى عشرة أميال ويخترقها من الشمال الغربى إلى الجنوبى الشرقى وادى بطحان ثم يجتمع فى وادى العقيق[٣] . وهى واحات متفرقة فى سهل فسيح يطلق عليه سهل المدينة . وكلمة «المدينة» معربة عن السريانية أى مساحة واسعة يسكنها قوم تجمعهم ظروف ومصالح مشتركة . فى هذا السهل الذى يقوم على جانبيه مرتفعان من البازلت الأسود يسميان الحرتين أو اللابتين تتناثر واحات أو قرى صغيرة ـ منها قباء والسنح وراتج .

(ب) ومن حيث السكان : كانت قبائل الأوس والخزرج والمجموعات اليهودية الكبيرة تسكن واحات خاصة بها[٤] ، وكان بالمدينة عند الهجرة ثمان وسبعون حصنا (آطام)

---

(١) التراتيب : ٢/٤٠ .

(٢) السابق : ١/٢٣٨ .

(٣) صالح أحمد العلى : الدولة فى عصر الرسول ﷺ المجلد الأول تكوين الدولة وتنظيمها . بغداد : المجمع العلمى العراقى ، ١٩٨٨ ، ص ٢١ .

(٤) حسين مؤنس : دراسات فى السيرة ، ص ٤٩ .

تستعمل للمراقبة والحماية[١] وهناك المزارع والمراعى حيث منازلُ القبيلة أو حماها فقد كانت المزارع منتشرة تروَى بالمياه التى تجـرى فى الوديان أو من الآبار . فالنشـاط الرئيسى هـو الزراعـة أو بعض الصناعات البيتية كالغزل والنسيج فى البيوت ، وماتخصص فيه اليهود من صناعـة الذهب وتجارته وبعض الصناعـات الأخرى . . ولم يكن التمـاسك العشـائرى قويا . . وللمرأة مكانة مستقلة ، ولعل فى كلمة سيدنا عمر ما يوضح هذا : «كنا معشر قريش نغلب النساء . فلما قدمنا على الأنصار إذا قـوم تغلبهم نساؤهـم فطفق نساؤنا يأخـذن من أدب الأنصار»[٢] . وكان هناك بعض الشخصيات من ذوى المكانة والنفوذ ومنهم النقباء الاثنا عشر . ولا تشير الأخبار إلى مؤسسات سياسية كدار الندوة فى مكة أو نواد . نظراً لسعة رقعة المدينة ، ثم اشتغالهم بالزراعة . مع كثرة المصادمات والمشاحنات مما أفقدهم الأمن أو مركزية السلطة ، وكذلك اصطدام المصالح وكان لليهود دور كبير فى إشعال هذه الفتن والحروب .

(جـ) **ومن الناحية الثقافية** : لم تكن القراءة والكتابة منتشرة فى المدينة باستثناء أفراد مثل أُبَيّ بن كعب ، وعبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، ممن كان يُطلق عليهم «الكملة» وهم الذين يحسنون الكتابة والرمى والعوم . وكان أهل المدينة شأن غيرهم عبدة أصنام وكانوا يحجون إلى مكة بشعائر خاصة . . وتشير المصادر إلى أن أبا الهيتم وصرمة بن أبى أنس وأسعد بن زرارة كانوا يكرهون الأصنام ومنهم من ترهب ولبس المسوح . ثم هناك إلى جانب هؤلاء وأولئك جاليةُ اليهود ، ولاشك أنه كان لهم أثر متناثر من عقيدتهم [٣] .

ويشير ياقوت فى «معجم البلدان» إلى أمر لم أقرأه عند غيره . يقول : وكان على المدينة وتهامة فى الجاهلية عامل من قبل مرز بان الزاره (قرية بالبحرين) يَجْبى خراجها [٤] .

ولابد من الإشارة إلى ما يحيط بالمدينة من قبائل الأعراب ، وكان أهل المدينة يشترون منهم بعض المنسوّجات والسلع كالصوف واللبن المجفف ويبيعونهم التمور والشعير .

هذا باختصـار حـال المـدينة سكنا وأمنا وثقـافـة واقتـصـاداً واعـتـقـادا قبل هجـرة الرسول ﷺ ، وإن كان محمد عمارة قد ذهب فى حديثه عن سيطرة اليهود إلى أبعد من ذلك

---

(١) الدولة فى عصر الرسول ﷺ ، ص ٢٢ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٤٥/٩ كتاب النكاح .
(٣) الدولة في عصر الرسول ﷺ ، ص ٣٠ . ويذكر الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : «أن الأوس والخزرج لما نزلوا المدينة وجدوا اليهود مستوطنين بها فحالفوهم . وكانوا تحت قهرهم . ثم غلبوا على اليهود . .» فتح البارى ٣٦٧/٢ .
(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٨٢/٦ دار بيروت للطباعة .

حيث قال : «أما يثرب وواحاتها الزراعية فإنها كانت قد خضعت لما يشبه السيطرة العبرانية منذ أن زحفت إليها هجرات اليهود فى القرن الأول بعد الميلاد عقب تدمير دولتهم على يد الرومان فاستعمروا تيماء وخيبر ويثرب وفدك ، واجتذبوا أجزاء من قبائل يثرب إلى ديانتهم وتكلموا العربية ولكنهم ظلوا بمعزل . . . واستمرت لهم سيطرة السادة على العرب الذين كانوا موالى لهم «ثم أشار إلى لقاء الرهط الخزرجى برسول الله ﷺ عند العقبة . وسألهم ﷺ أمِنْ موالى يهود؟ قالوا : نعم»[١] ويقول ياقوت فى إشارة سريعة :« وكانت قريظة والنضير اليهودُ ملوكا حتى أخرجهم منها الأوس والخزرج . وكانت الأنصار قبلُ تؤدى خراجًا إلى اليهود»[٢] .

ثانيا : المدينة دار الهجرة وعاصمة الإسلام

١ - بيعة العقبة :

أول لقاء بين رسول الله ﷺ وأهل المدينة بمكة كان عندما قدم مكة نفر للحج[٣] فاتصل الرسول بستة منهم ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا . وكان هؤلاء الستة من ذوى المكانة فى قومهم ومن عدة عشائر . وحين قدم هؤلاء إلى المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم الإسلام .

وفى السنة التالية قدم مكة اثنا عشر فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء «ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان ولا نعصى فى معروف» . هذه البيعة وما سبقها إنما هى على التوحيد وبعض الأحكام الخُلقية . . .

وطلب المبايعون أن يرسل معهم الرسول ﷺ رجلاً يفقههم فى الدين ، فأرسل ﷺ مصعب بن عمير (يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين) .

ثم كانت البيعة التالية حين قدم من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان[٤] . وهذه البيعة هى أول مظهرٍ سياسى فى الإسلام وأول أساس لشرعية الحاكم . وإن كانت شرعية الرسول ﷺ مستمدة من الله سبحانه .

---

(١) محمد عمارة : الخلافة ، ص ٥٤ ، كتاب الهلال .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٨٣/٥ .

(٣) وإن كان ابن حجر قد ذكر أن هذا النفر قدم مكة ليحالفوا قريشًا . . الفتح ٣٦٧/٢ .

(٤) «المرأتان هما : أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم أسماء بنت عمرو» . سيرة ابن هشام ، المجلد الأول ، ص ٣٠٢ .

تمر كلمة «البيعة» فلا يلتفت إليها أحد من علماء السياسة والحكم إلا إذا كانت عند السقيفة أو ما تلاهما ، ولا يقفون عند مبايعة الرسول ﷺ لهؤلاء القوم . وقد تكررت البيعة ولكنها تطورت .

والبيعة كما نعلم : عقد يمنح السلطة أو التفويض فى أمر عام أو خاص . وبيعة العقبة الثانية لاترجع أهميتها إلى تثبيت الإسلام وتوسيعه ونشره فى المدينة ، فهذا الأمر قد استقر قبلها إنما ترجع أهميتها إلى الآتى :

١ ـ تنظيم علاقة الرسول بمسلمى المدينة على أسس قانونية واضحة .

٢ ـ أنها تعبير عن العزم الذى أبداه أهل المدينة على حماية مسلمى مكة .

٣ ـ أنها تجاوزت الجوانب الأخلاقية فى البيعة الأولى حيث جاء فى الثانية هذه قوله ﷺ : «تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر» «وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم» وفى رواية أخرى : «أن تنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم» . ولما سئل جابر بن عبد الله : كيف بايعتم رسول الله ﷺ ؟ قال : بايعناه على ألا نفرّ» . هذه مبايعة تؤكد على الجانب السياسى والحربى معاً . فأما الجانب الحربى فهو ما جاء فيها من الحديث عن المنع والنصر وعدم الفرار . وأما الجانب السياسى فقد اهتموا بتأمين مصالحهم ، فقد قال أبو الهيتم بن التيهان يارسول الله ﷺ إن بيننا وبين الرجال ـ اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها فهل عَسَيْت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . فابتسم رسول الله ﷺ وقال[1] : «بل الدمَ الدمَ والهدمَ الهدمَ . أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتهم»[2] وهى معاهدة قد تجرهم إلى حرب الأسود والأبيض وبذلك ضمنت بيعة العقبة قاعدة جديدة فى مجتمع يفتقد السلطة المركزية والتنظيم السياسى والمسئول الذى يجمع شملها وينظم أمورها . .»[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ص ٣٠٣ .

(٢) بل الدم الدم يعنى : إنكم تُطلبون بدمى وأطلبُ بدمكم ، دمى ودمكم شىء واحد . والهدم الهدم : إن كانت بفتح الدال فهو القبر أى أقبر حيث تقبرون وقيل : «الهدم هو المنزل أى : منزلى منزلكم» كقوله ﷺ فى حديثه الآخر : المحيا محياكم والممات مماتكم ، أى لا أفارقكم . وإن كانت بسكون الدال وبالفتح أيضًا فمعناه : إهدار دم القتيل ، ومعناه : إن أهدر دمكم فقد أهدر دمى لاستحكام الألفة بيننا . وهو قول معروف للعرب يقولون : دمى دمك وهدمى هدمك وذلك عند المعاهدة والمناصرة .» راجع «النهاية فى غريب الحديث والأثر» لابن الأثير ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، دار إحياء الكتب العربية .

(٣) الدولة فى عهد الرسول ، ٧٢/١ .

ثم كان تعيين النقباء الإثنى عشر : ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج أول إشارة إلى التنظيم بعد أن طلب الرسول ﷺ أن يختاروا من يشاءون . «وأراد رسول الله ﷺ بذلك أن تكون إلى جانبه هيئة مختارة من شيوخ المدينة تشاركه فى كل ما يستجد .»[١] .

أين الشيخان الكتانى والخزاعى فى أمر البيعة وتعيين النقباء وهما متضامنان معاً؟ أشارا عَرَضاً إلى بيعة العقبة الأولى فى سياق الحديث عمن بعثه رسول الله ﷺ إلى الجهات يعلم الناس القرآن الخ . . فقد جاء عند الخزاعى «ومنهم ـ أى المعلمون أو القراء ـ مصعب ابن عمير عند انصراف النبى ﷺ من القوم الذين بايعوه فى العقبة الأولى وهم اثنا عشر . . . إلخ .» . وعند الكتانى : بعثه رسول الله ﷺ مع الاثنى عشر أهل العقبة الثانية[٢] . ونلاحظ أن الخزاعى جعلها الأولى وجعلها الكتانى الثانية .

وأما النقباء فلم يأت لهم ذكر عند الخزاعى وجاء عند الكتانى بعنوان : باب فى النقباء ثم قال : لما مات أسعد بن زرارة جاء بنو النجار إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ، مات نقيبنا فنقّب علينا قال : أنا نقيبكم . لكنها فى ذكر العرفاء ربما جاء توضيح ما ذكروه عن العرفاء شيئا عن دور النقباءحيث جاء فيه : العريف : القيم بأمور القبيلة والجماعة من الناس يلى أمورهم ويعرف الأمير أحوالهم منه . وهذا التعريف يوضحه الموقف التالى : حين جاء وفد هوازن مسلمين يسألون رسول الله ﷺ أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فأحب رسول الله ﷺ أن يرد إليه السبى دون المال فخطب فى الناس لأجل ذلك ، فقال الناس : قد رضينا ذلك فقال لهم رسول الله ﷺ : إنا لاندرى من أذن لكم فى ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبى ﷺ فأخبروه برضاهم» . فأصل نصبهم هو أن المصلحة تقتضى ذلك لما يحتاج إليه الأمير من المعاونة على ما يتعاطاه بنفسه وتحمل الكبار بالصغار والرؤساء بالمرءوسين فى الحروب والضمانات وسائر المعاملات»[٣] .

٢ - الرسول ﷺ فى المدينة

فإذا ما وصلنا إلى المدينة المنورة نجد أنه ﷺ اهتم بتنظيم الزراعة بها وتعبيد الطرق وغرس الأشجار وإقطاع الأرض لاستصلاحها وإقرار الأعراب حولها مما أشرنا إليه فى بداية

---

(١) حسين مؤنس : دراسات فى السيرة ،ص ٦٦ .
(٢) التراتيب ٤٢/٢ .
(٣) السابق ٢٣٦/١ .

هذا البحث . وكان علاجه للمجتمع شاملاً فى جانبه الاقتصادى أو جانبه الإدارى . ولم تكن المهمة سهلة إذا تذكرنا الروح القبلية والاعتداد بالفردية التى تأبى الخضوع لأى سلطة لكنَّ خلقه الكريم ﷺ فى التسامح والإيثار والحب وقوة شخصيته عزَّز مكانته وثبَّت سلطانه على القلوب .

وحين نتكلم عن الإدارة لايعنى ذلك أجهزة ومؤسسات ومجالس استشارية ، إنما نعنى إدارته ﷺ لدولاب العمل والأخذ بمبدأ الشورى وتعيين الولاة وأمراء الجند والاهتمام بالتعليم والصحة . ولعلَّ من بواكير هذا التنظيم الإدارى والسياسى معاً ما جاء فى الصحيفة التى أصدرها ﷺ فى السنة الثانية للهجرة[1] . ونشير إلى خطوطها العريضة التى تؤكد النبوة والسلطة معاً فى شخصية ﷺ وكيف أنه أصبح سيد المدينة ، تصدر القرارات باسمه ، وتجب طاعة الجميع له ، بعد أن نتحدث عن الهجرة فى جانبها السياسى .

كان الهدف من بيعة العقبة إيجادَ قاعدة آمنة توفر للمسلمين حرية العقيدة وتوفر الجماعة الآمنة لمن يلجأ إليها . وكان من شروط البيعة لمن يسلم هو أن يهاجر إلى المدينة . يتضح ذلك من حثّ القرآن الكريم على الهجرة وخاصة آخر الأنفال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾[2] .

وهذا الشرط كان ضروريًا وذا أهمية كبيرة في حياة الدولة المسلمة عندما كان عدد المسليمين قليلاً وكانوا مهددين بالأخطار . فكان لابد من استدعاء كل من أسلم لتوطين المدينة وليكونوا أقرب إلى الرسول ﷺ ويستطيعوا الاستجابة السريعة لما تقتضيه الظروف . كما أن السكن فى المدينة مع الرسول ﷺ ومع المسلمين يعين على تفهيم المسلمين الجدد مبادئ الإسلام ومتطلباته وقد ظل هذا الشرط موجودًا إلى أن فتحت مكة[3] .

ترتب على هذا الشرط ـ وهو استيطان المدينة للمسلمين الجدد ـ مشكلات صحية واقتصادية واجتماعية . وقام ﷺ بدوره العظيم وهو يستقبل اللاجئين والفارين بدينهم من

---

(١) نص الصحيفة عند ابن هشام ، ٢٤٨/٢ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، وراجع : صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ﷺ ، ١٠٤/١ .

(٢) الأنفال ، آية ٧٢ .

(٣) صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ، ٧٥/١ .

شتى البقاع . لقد تصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا فأصاب المرض بعض الصحابة . واستوخم البعض جو الهجرة الجديد وأخذت تستيقظ فى نفوسهم غرائز الحنين إلى الوطن المفقود . وهكذا واجهت النبىّ العظيم ﷺ شدائد المشكلات بالإضافة إلى توفير العمل والمسكن . كان هو المثل الأعلى أمامهم . ثم أخذ يصبرهم على احتمال الشدائد . ويطالبهم بالمزيد من الجهد والتضحية ، ويعدُ بالخير لمن يصبر على لأواء المدينة وشدتها ، ويدعو الله سبحانه أن يحبِّب إليهم المدينة وأن يبارك لهم فى طعامها . حتى ارتفع الروح المعنوى بهذا التشويق والإقبال ، واتجهت القوى الفتية إلى البناء[١] . وأما الجانب الاجتماعى فتشير إليه آية الممتحنة ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[٢] .

وأما مشكلة المعيشة والسكن فقد أتيح لبعضهم أن يتاجر كما حدث مع عبد الرحمن ابن عوف وغيره ، ونزل بعضهم ضيفا على الأنصار ، واتخذ بعضهم المسجدَ مسكنا . على كلٍّ لم تكن إعالة المهاجرين تمثل عبئا كبيراً نظراً لانخفاض مستوى المعيشة والقناعة بما تيسَّر حتى لو كان التمر والماء ، إلى أن أقطع الرسول ﷺ الأراضى التى لاملكية لها (خط ـ ﷺ ـ لأصحابه فى كل أرض ليست لأحد وفيما وهبت له الأنصار من خططها)[٣] .

شُغل رسول الله ﷺ أول مستقره بالمدينة بوضع الدعائم التى لابد منها لقيام رسالته فى المعالم الآتية :

١ ـ صلة الأمة بالله .

٢ ـ صلة الأمة بعضها ببعض .

٣ ـ صلة الأمة بالآخرين .

أمة الإسلام ليست كأى أمة . إن المسلمين أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله وتوضح نظرتهم للحياة ، وتنظم شئونهم . وتنتهى بعلاقتهم بالآخرين إلى غايات معينة . يستضيئون بالوحى ويقتدون بإمامهم وسيدهم ﷺ ليحققوا الحكمة العليا التى من أجلها خُلق الناس وقامت الحياة .

---

(١) محمد الغزالى : فقه السيرة ، ص ١٣٣ .
(٢) الممتحنة : آية ١٠ .
(٣) صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ﷺ ، ص ٨٥ .

تتحقق صلتهم بالله أول ما تتحقق فى المسجد[١] فكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ هو بناء المسجد فى صورة بسيطة . فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد وأعمدته الجذوع . هذا البناء المتواضع الساذج هو الذى ربى ملائكة البشر ومؤدبى الجبابرة وملوك الدار الآخرة . إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم ومنتدى للأدب .

ليس المسجد مساحة تحتكر الصلاة ، فالأرض كلها مسجد ، إنما هو رمز لما يهتم له الإسلام ويتشبث به . إنه وَصْل العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن ويتكرر آناء الليل وأطراف النهار . فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد وتجهل اليوم الآخر وتخلط المعروف بالمنكر [٢] .

والعجيب أن للصلاة دورها فى تحديد الأولياء من الأعداء . يقول الحق سبحانه : ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾[٣] . ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[٤] .

وعن صلاة الجنازة يقول الحق سبحانه لرسول الله ﷺ : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[٥] .

وأما المعلم الثانى وهو صلة الأمة بعضها ببعض ، فقد أقامه ﷺ على الإخاء الكامل الذى تمحى فيه الأثرة وتذوب فيه عصبيات الجاهلية وتسقط فوارق النسب واللون والوطن فلاحمية إلا للإسلام . وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عَقْداً نافذاً وعملاً يرتبط بالدماء والأموال . وقد حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين حتى إن المهاجر لم يكن ينزل على الأنصارى إلا بالقُرْعة . وظل عقد الأخوة مقدمًا على حق القرابة زمنًا [٦] . وأما العلاقة بين المسلمين وغيرهم ففى نصوص « الصحيفة» أو دستور المدينة بيان شاف فلتتأمل معالمها الرئيسية : ـ

---

(١) فقه السيرة ، ص ١٣٥ .
(٢) السابق : ١٣٦ .
(٣) التوبة : آية رقم ٥ .
(٤) التوبة : آية رقم ١١ .
(٥) التوبة : آية رقم ٨٤ .
(٦) فقه السيرة ، ص ١٣٨ .

فى بدايتها كما رواها ابن اسحاق فى سيرة ابن هشام[١] :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين» .

والنص هنا يوضح :

(١) أن الرسول ﷺ بحكم النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة صار هو الرئيسَ المسئولَ . باسمه تصدر الوثائق والأوامر والمعاهدات[٢] .

(٢) وأن المسلمين أمة واحدة من دون الناس يرتبطون برابطة العقيدة وليس على أساس الدم أو الجنس أو اللون . دماؤهم واحدة ويجير عليهم أدناهم .

وأنهم مسئولون فى تحمل الديات وفك الأسرى (أنهم لايتركون مُفْرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل) والمفْرحُ : المثقل بالدّيْن كثير العيال[٣] . وأن ولاءهم واحد ودماءهم متكافئة ولايجوز لمؤمن أن يوالى مولى مؤمن دونه . وأن بقية العشائر من بنى عوف وبنى الحارث ومن إليهم عليه حمايةُ ضعيفهم وفك أسراهم وتحمل دية قتلاهم .

(٣) الأمن مسئولية الجميع : «إن المؤمنين المتقين على من بغى أو ابتغى ظلماً أو عدواناً أو فسادًا ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم» فيجب اشتراك الجميع فى صيانة الأمن ومطاردة المفسدين والامتناع عن حماية المجرمين : لايحل لمؤمن أقرَّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (مجرما) أو يؤويه . فمن نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه .

(٤) القضاء والعدالة : تظهر الوثيقة اهتمام الرسول ﷺ بأمر العدالة وتنظيم القضاء وقد نص القرآن الكريم على جعل القضاء بيد الرسول ﷺ . يقول سبحانه : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[٤] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٤٨/٢ .
(٢) محمد أبو زهرة : خاتم النبيين ، دار الفكر العربى ، ٢٠/ ٣٤ .
(٣) ابن هشام . السابق .
(٤) النساء : آية ٦٥ .

وجاء النص فى الصحيفة على :

١ ـ إنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

٢ ـ ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ [١] .

والنص السابق يُدْخل اليهود ومن كان على دين الشرك . وإن كان لليهود وضع آخر إلى جانب هذا . فإذا كان الأمر يتعلق بالنظام العام فى حرمة الدماء والأموال وما إليها فإنهم يخضعون لما فى هذه الوثيقة ، وأما ما يتعلق بشئونهم الخاصة فهم أحرار . وللرسول ﷺ إذا احتكموا إليه فى شئونهم الخاصة أن يحكم أو يُعرض .

(٥) حرية العقيدة : وأن جميع قبائل اليهود أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ولليهود النصر والأسوة مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لايوتغ (لايُهلك) إلا نفسه .

(٦) وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . واليهود والمسلمون عليهم ما يأتى :

أ ـ واجب الدفاع عن الوطن إذا هوجم (وإن بينهم النصر على من دَهمَ يثرب) .

ب ـ لايجوز إطلاقاً جوار واحدٍ من قريش أو حمايته أو حمايةُ ماله ولايحول دونه على مؤمن .

حـ ـ لا يجوز الاقتتال بانتهاك حرمة يثرب (فيثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة) .

د ـ تعاون الجميع على الدفاع عن المظلوم ونصرته ، وأن النصر واجب إذا حورب أهل هذه الصحيفة وأن على اليهود النفقة مع المسلمين ما داموا محاربين .

هـ ـ لايجوز لأحد من اليهود أن يخرج من المدينة إلا بإذن من رسول الله ﷺ .

هكذا نظمت الصحيفة أول مجتمع خليط من ديانات مختلفة يجمعهم ولاء واحد للوطن وللقائد . ماذا تسمى هذا؟ أليست هذه دولة؟ وأليس رسول الله ﷺ حاكمًا عليه مسئولية تنظيم الأمن والعقيدة والتعاون ونصرة المظلوم وشئون الحرب والسلام والتقاضى؟ وهكذا اختلف الدين واتحد الولاء واتحدت القيادة واتحد العدو . ولذلك فإن الوثيقة نصت على أنه لايصح أن يتعاون اليهود مع أعداء محمد ﷺ وأن عليهم أن ينصروا المسلمين ويشتركوا معهم فى الدفاع عن المدينة وفى الاتفاق أثناء الحرب ، ولايجوز أن يسالموا العدو أو يؤووه . وأخيراً إلى جانب المسئولية الجماعية هناك المسئولية الفردية ، تقول الوثيقة :

---

(١) ابن هشام ٢/٣٥٠ ، صالح العلى ١/١٠٦ .

«لايكسب كاسب إلا على نفسه وإن هذه الصحيفة لاتحمى ظالما أو آثماً . من خرج فهو آمن ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم وأثم» [١] .

عند هذا المدى الزمنى فى بداية الرحلة النبوية المطهرة لإقامة الدولة يتوقف الحديث دون التجول فى دواوينها وشهود جهادها وعظمة رجالها رهبان الليل وفوارس النهار .

ثم نختم بحثنا بملاحظات عن التراتيب للشيخ الكتانى .

ملاحظات على الشيخ الكتانى

أول ما يصافحك من هذا الشيخ الجليل وأنت تصحبه فى رحلته هذا الخلق النبيل : عفَّة فى اللسان وعذوبة فى القول ورقةً فى القلب وتوقيرًا لأقدار الرجال . لايتحدث عن عالم إلا أضفى عليه من التكريم والثناء ما ينبئ عن طيب العنصر وكرم الأرومة . وربما أعان الشيخ على هذا الخلق الزكى هوًى صوفى تسلل إلى الوجدان . وهو يذكرنا فى ذلك بشيخه أبى حامد محمد بن محمد الغزالى . . ثم رفد هذا الخلق تبحر فى العلم فجمع الله له بين الحسنيين . ولم يقف تبحره على فن واحد بل ضرب فى كل الدروب وأخذ من كل العلوم فكان عالماً محققا فقيها محدثًا . . حتى إذا ما نزع استحالت غربا[٢] فروى وأثْبَتَ . أخلص فى الذود فتفجرت الينابيع .

ولأنه عالم محقق فإن الهفوات عنده سقطات .

أولا : كيف يا شيخنا الجليل وأنت الناقد البصير تحتفى بأثر هالك لايسُيغه عقل ولايجيزه محقق؟

فى ٤٢/٢ تراتيب : « وفى ترجمة سعد بن معاذ الأنصارى من الإصابة روى الخطيب فى المتفق بإسناد واهٍ وأبو موسى فى الذيل بإسناد مجهول عن الحسن عن أنس أن النبى ﷺ لما رجع استقبله سعد بن معاذ الأنصارى فقال : ما هذا الذى أرى بيدك فقال أثر المسحاة أضرب وأنفق على عيالى . فقبَّل النبى ﷺ يده وقال : «هذه يد لا تمسها النار» ٤٢/٢ وبالرجوع إلى الإصابه ٨٦/٣ رأيت العسقلانى يسوق الخبر الهالك فى ترجمة من يسمى سعد بن معاذ الأنصارى آخر . وفيه : رجع من تبوك . وقد سقطت عند الكتانى . وبالرجوع إلى شيوخ التحقيق :

---

(١) ابن هشام ٣٥٠/٢ .

(٢) استحالت غربًا : استشراف بقول الحبيب ﷺ عن خلافة الفاروق : «ثم أخذها عمر ـ أى أخذ الدلو بعد أبى بكر ـ فاستحالت غربا (أصبحتْ دلوا عظيمًا) إشارة إلى اتساع الدولة ووفرة الخير . . والمقصود هنا غزارة علم الشيخ وتدفقه . (فتح البارى ٣٣/٧) .

وجدت أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزى يقول : «عن الحسن عن أنس» وذكر النص ثم قال : هذا حديث موضوع وما أجهل واضعه بالتاريخ فإن سعد بن معاذ لم يكن حيًا فى غزاة تبوك لأنه مات بعد غزوة بنى قريظة من السهم الذى رمى به يوم الخندق سنة خمس ، وتبوك سنة تسع ، فلو كان عند الكذاب توفيق ما كذب [١] .

وعند الإمام جلال الدين السيوطى :«عن أنس ـ ذكره ـ» لكنه أضاف زيادة على ما ذكره ابن الجوزى : ذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة أن سعد بن معاذ هذا صحابى آخر غير ذلك المشهور [٢] .

وعند شيخ المحدثين فى العصر الحديث محمد ناصر الدين الألبانى : بعنوان «وهذه يد لا تمسها النار أبداً» قال : «ضعيف» . وبعد أن أورد ما قاله ابن الجوزى والسيوطى . قال : «قال : الشيخ عبد الحى الكتانى فى التراتيب الإدارية ٢ ، ٤٢ ، ٤٣ بعد ما نقل كلام الحافظ : قلت : ـ الكتانى ـ فى هذه القصة عجيبة وهى تقبيل النبى ﷺ يد صحابى لأجل ضرب الأرض بالفأس» قلت ـ الألبانى ـ لكن يقال : أثبت العرش ثم انقش فإن القصة غير ثابتة كما علمت [٣] .

فالقصة كما ترى باطلة وموضوعة ، وما سعد بن معاذ هذا إلا شخصية مختلقة للنجاة من الكذب التاريخى لأن سعدًا الحقيقى توفى بعد الخندق ، وللتخلص من هذا قالوا : سعد ابن معاذ آخر .

أين شيخنا من هذه الهزأة؟

نص على أن الأثر واهٍ وهذا شرط العلماء فى رواية الأكاذيب حتى لا يتعرض الروای للوعيد النبوى «من كذب علىّ . .الحديث» لكنَّ الشيخ بدل أن يتبرأ من عارها ويدفنها إذا به يقول : « قلت : فى هذه القصة عجيبة وهى تقبيل اليد» ٤٢/٢ كما ذكره الشيخ الألبانى . الأدهى أن الشيخ الكتانى حوَّل الأمثولة إلى أنشودة فعاد إليها مرة أخرى ١٠٢/٢ حيث يقول : « وتقدم أن سعدًا قبَّل المصطفى يده» . عفا الله عنا وعنك فالغفلة عن الآفة مهلكة يا شيخنا .

---

(١) ابن الجوزى : الموضوعات ، تحقيق عبد الرحمن محمد عقمان . المدينة المنورة : المكتبة السلفية ، ٢٥١/٢ .
(٢) جلال الدين السيوطى : اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة .بيروت : دار المعرفة .
(٣) محمد ناصر الدين الألبانى : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، المجلد الأول ، حديث رقم ٣٩١ .

ثانيا : ثم دفعه الهوى الصوفى إلى سقطة أخرى ، ولتنظر ماذا قال عند تحريره لموضوع : «رقص الحبشة فى المسجد النبوى أمامه عليه السلام» ١٤١/٢ « وفى ترجمة أنس من مسند أحمد كانت الحبشة يزفون بين يدى رسول الله ﷺ ويرقصون ويقولون : محمد عبد صالح[١] » فحوّل الشيخُ هذا اللعب والرقص إلى ذكر ، لماذا؟ حتى يحتج به على تمايل الجاهلين فيما يسمى «بحلقات الذكر» . انظر إلى تلاعب الشيخ : «غاية الرقص عند القوم ذكر من قيام ، وهو مشروع بنص القرآن الآية» والقيام يا شيخ هو القيام فى الصلاة وليس الرقص . وقد تولّى تفنيد هذا الزيغ القرطبى المفسر : عند قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢] .

قال القرطبى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الأندلسى (٦٧١هـ) : قال ابن عطية[٣] : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله تعالى : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قلت : وهذا تعلق غير صحيح . هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نَعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوهم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم . وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء .أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة فى هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان . هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء . وقال الإمام أبو بكر الطرطوشى[٤] وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل»[٥] . ثم عاد القرطبى إلى إنكار نفس الزيغ عند تفسير قوله تعالى من سورة طه : ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾[٦] .

---

(١) ابن حنبل : المسند ، ٤٩٢/١٠ حديث رقم ١٢٣٧٩ ، تحقيق : حمزة أحمد الزين . القاهرة ، دار الحديث .
(٢) الكهف : آية ١٤ .
(٣) ابن عطية : عبدالحق بن غالب الغرناطى (٤٨١ - ٥٤٢هـ) أبو محمد مفسر وفقيه أندلسى ومن كتبه : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، الأعلام ٥٣/٤ .
(٤) الطرطوشى ، محمد بن الوليد : أبو بكر الطرطوشى (٤٥١ - ٥٢٠هـ) نسبته إلى طرطوشة بالأندلس . صاحب كتاب سراج الملوك وغيرها ، الأعلام ٣٥٨/٧ .
(٥) تفسير القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ٣٩٨٣/٥ ، طبعة دار الشعب .
(٦) طه : آية ٩٢/ ٩٣ .

قال القرطبى :« وسئل الإمام أبو بكر رحمه الله عن مذهب الصوفية . وأُعْلِم أنه احتج جماعة من رجال يكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ ثم إنهم يوقّعون بالقضيب على شىء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيًا عليه ويُحضرون شيئا يأكلونه . هل الحضور معهم أم لا؟ »

«الجواب : مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة . وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى . وإنما كان يجلس النبى ﷺ مع أصحابه كأن على رءوسهم الطير من الوقار . فينبغى على السلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعيينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين[1] .

لولا تلبيس الباطل يا شيخنا ما استدعينا هؤلاء القضاة . فمن قال : إن الرقص عبادة؟

وهل ما فعلته الحبشة فى المسجد ذكر؟

يقول صاحب الفتح : «وأما ما ابتدعته الصوفية فى ذلك ـ الغناء والرقص ـ فمما لا يختلف فى تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب حتى لقد ظهر من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، فرقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقح بقوم منهم أن جعلوها «من باب القرب وصالح الأعمال ، وأن ذلك يثمر سنىّ الأحوال» وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وفعل أهل المخرقة»[2] .

المصنَّف ملىء بهذه الآثار الواهية وبعضها فقد الحياء . حين يصور فرحًا حضره رسول الله ﷺ وقال على الألفة والخير والطائر الميمون دَفِّفُوا (اضربوا بالدف) على رأس صاحبكم . وجاءت الجوارى معهن الأطباق فيها اللوز والسكر فتُنثر عليهم (ويمكن أن تُقْرأ نَثَرَ بالبناء للفاعل) وهو يناسب سوء الأدب مع رسول الله . والقصة من سخفها وثقلها تثير الاشمئزاز . ومع أن الشيخ نقل رأى المحققين فيها وأنها أثر هالك ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يجعل

---

(١) تفسير القرطبى ، ٤٢٧٧/٥ .

(٢) الحافظ ابن حجر : فتح البارى ، ٣٦٨/٢ .

لها عنوانا كما لو كانت حقيقة صحيحة ، فعقد لها هذا العنوان : «نهب اللوز والسكر ونثره فى العرس»[١] .

وهذه سُنة مطردة عن الشيخ يذكر الآثار الواهية ثم يتناسى هذا ويحتفى بها (تقبيل اليد أو الرقص أو النهب» .

ومن الأخطاء ، ولعلها مطبعية :

(١) «وفى الصحيح أن النبى ﷺ لما هاجر استأجر رجلاً يهوديا خريتا» ولعلها هاديًا فقد جاء فى فتح البارى ٣٦٢/٤ كتاب الإجارة : واستأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل هاديا وكان على دين كفار قريش»[٢] .

(٢) «وترجم فى الإصابة لعبد الرحمن بن أبزى فنقل عن ابن السكن[٣] فقال : استعمله النبى ﷺ على خراسان[٤] . فعلاً ذكره ابن حجر فى الإصابة[٥] ٢٨٢/٤ . وهذا خطأ لأن خراسان هذه بدأ فتحها فى خلافة عمر سنة ١٨ هـ . لكنَّ شيخنا على دقة استدراكاته ينقل أحيانا عن الآخرين بغير مراجعة .

(٣) وشبيه بهذا وهو يتكلم عن سك النقود قال :

«كما ألف فى الباب أيضا الحافظ السيوطى رسالة سماها «قطع المجادلة فى تغيير المعاملة» وهى رسالة نفيسة فى نحو كراسة . ذكر فى أولها ان ابن أبى شيبة[٦] أخرج فى مصنفه عن كعب : أن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام»[٧] .

هذه أخبار ينبغى أن تبرأ منها المؤلفات العلمية . . .

هناك أخيراً بعض الأخطاء فى سياق الآيات القرآنية أو فى القواعد النحوية :

---

(١) التراتيب : ١٥٥/٢ .
(٢) التراتيب : ٤٦٠/١ .
(٣) ابن السّكن ، أبو على سعيد بن عثمان (٢٩٤ - ٣٥٣هـ) من حفاظ الحديث نزل بمصر وتوفى بها ، الأعلام ٢١٧/٦ .
(٤) السابق : ١٤٣/١ .
(٥) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، تحقيق : على محمد البجاوى .
(٦) ابن أبى شيبة (١٥٩ - ٢٣٥هـ) عبد الله بن محمد الكوفى ، أبو بكر . حافظ للحديث له : المسند ، المصنف ، سير أعلام النبلاء للذهبى ١٢٢/١١ .
(٧) التراتيب : ٤٢٥/١ .

الصفحة	الخطأ فى الآية القرآنية	تصويبه
٤١/٢	فأخرجنا منه خضرًا نخرج به حباً متراكبا	﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ﴾[1] .
٤١/٢	والنخل والزرع مختُلفه أكله	﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ [2] .
٤١/٢	ومن الأرض قطع متجاورات	«وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ» [3] .
٢٠٠/٢	والصابرين فى السراء والضراء وحين البأس	﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [4] .

ونكتفى بهذا القدر لنشير إلى بعض الأخطاء النحوية ، أما الإملائية فربما دفع إليها الخطأ المطبعى .

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢٣٢/١	يتحدث عن سعد بن أبى وقاص :« رأيت أخى عمرو بن أبى وقاص . . متوارى»	متوارياً
١٩٢/١	« وأول ما استعمل العرب الإبل ثم استبدلوها بالبغال»	ثم استبدلوا بها البغال
١٩٤/٢	«وله ذيول طبعت منه ولاكن الطابعون لم يميزوا بين الأصل والفرع»	ولكن الطابعين

وقد لاحظتُ أن الكتابة الإملائية فى المصنف كانت تثبت ألف المد هذه فى كلمات مثل «لا إلاه إلا الله ـ الرحمان ، لاكن ، طاها وهاكذا» . . . .

عتاب أخير على شيخنا . . وهو أنه حين أخذ فى عرض الموسوعات فى إحصاء العلوم في القرن الرابع ذكر الفارابى أبا نصر محمد بن طرخان (٣٣٩هـ) وكتابه «إحصاء العلوم» . والخوارزمى أبا عبد الله بن أحمد (٣٨٧هـ) فى كتابه «مفاتيح العلوم» .

---

(١) الأنعام : آية١٤١ .
(٢) الأنعام : آية ١٤١ .
(٣) الرعد : آية ٤ .
(٤) البقرة : آية ١٧٧

وأبا القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى (٤٦٠هـ) فى كتابه «طبقات الأمم» .

ثم أغفل عمدةَ هؤلاء جميعا أبا الفرح محمد بن إسحاق (ابن النديم) (٣٨٥هـ) فى ذخيرته المشهورة «الفهرست» . مع أنه أشار إليه فى ثنايا كتابه ٢٦٣/٢ ، ٢٧٤/٢ ، ٢٧٥/٢

وبعد :

فمعذرة يا شيخنا الجليل لمكانك ومكانتك ، لكنَّ الحق أحب إلينا ، وجزاك الله خير ما يجزى به العلماء على هذا الإمتاع الذى أنست به زمنًا بصحبة شيخنا الخزاعى وصحبتك فى رحلة علمية مباركة وارفة .

وأعتذر عن هذه القراءة العجلى التى قد يعتورها قصور أو نقصان ، راجيا أن تكون تلك إشارةً متواضعة إلى هذين العملين حتى يقيض الله لهما أحد شيوخ التحقيق وخاصة موسوعة الشيخ عبد الحى الكتانى التى هى من نوادر المؤلفات فى هذا الباب ، والتى تنبئ عن عالم جليل لايعرف قدره إلا القليل ، وأسأله سبحانه العفو والمغفرة .

المصادر والمراجع

١ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب / ابن عبدالبر .

٢ - الإسلام وأصول الحكم/ على عبد الرازق . القاهرة : دار الهلال .

٣ - الإصابة فى تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلانى .

٤ - الأعلام/ خير الدين الزركلى .

٥ - تاريخ الأدب العربى/ بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار . القاهرة : دار المعارف .

٦ - تاريخ الأدب العربى/ جرجى زيدان . القاهرة : دار الهلال .

٧ - تفسير القرطبى . القاهرة : دار الشعب .

٨ - ثلاث معارك فكرية/ مختار التهامى . القاهرة : دار مأمون للطباعة .

٩ - خاتم النبيين/ محمد أبو زهرة . القاهرة : دار الفكر العربى .

١٠ - الخلافة / محمد عمارة . القاهرة : دار الهلال .

١١ - دراسات فى السيرة/ حسين مؤنس . القاهرة : دار المعارف .

١٢ - الدولة فى عهد الرسول ﷺ / صالح أحمد العلى . بغداد : المجمع العلمى العراقى .

١٣ - الرسالة/ الإمام الشافعى ، تحقيق أحمد شاكر . القاهرة : دار التراث .

١٤ - رفاعة الطهطاوى رائد التنوير/ محمد عمارة . القاهرة : دار الشروق .

١٥ - سلسلة الأحاديث الضعيفة/ محمد ناصر الدين الألبانى . بيروت : المكتب الإسلامى .

١٦ - سنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى . بيروت : دار الكتب العلمية .

١٧ - سير أعلام النبلاء/ الذهبى ، تحقيق شعيب الأرناؤطى . بيروت : مؤسسة الرسالة .

١٨ - سيرة ابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة : مطبعة محمد على صبيح .

١٩ - صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . القاهرة : إحياء الكتب العربية .

٢٠ - فتح البارى/ ابن حجر العسقلانى . بيروت : دار المعرفة .

٢١ - فقه السيرة/ محمد الغزالى . القاهرة : دار الشروق .

٢٢ - اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة/ جلال الدين السيوطى . بيروت :

دار المعرفة .

٢٣ – المجمعيون/ المجمع اللغوى . القاهرة : مجمع اللغة العربية .

٢٤ – المستشرقون/ نجيب العقيقى . القاهرة : دار المعارف .

٢٥ – المسند/ للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق حمزة الزين . القاهرة : دارالحديث .

٢٦ – مشهورون ومنسيون/ فتحى رضوان . القاهرة : كتاب اليوم ، أخبار اليوم .

٢٧ – معجم البلدان/ ياقوت الحموى . دار بيروت .

٢٨ – المعجم الفلسفى/ إشراف إبراهيم مدكور . القاهرة : مجمع اللغة العربية .

٢٩ – مقدمة ابن خلدون .

٣٠ – الموسوعة الثقافية/ إشراف حسين سعيد . القاهرة : دار الشعب .

٣١ – الموضوعات / عبدا لرحمن بن الجوزى . المدينة المنورة : المكتبة السلفية .

٣٢ – النهاية فى غريب الحديث والأثر/ ابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحى . القاهرة : إحياء الكتب العربية .

٣٣ – نيل الأوطار/ محمد بن على الشوكانى . بيروت : دار الكتب العلمية .